الحياة

ALHAYAT

ت .م :25-12- ت .ه :23-11-
2005 - 1426
العدد :15607 - الصفحة :19

حين لم أصوت ، مفضلا أن أتذكر سمير قصير...

هاني شكرالله

'عزيزي هاني،

أعتذر عن التأخير الفاضح في الرد علي رسالتك، ولكن لمدة أكثر من شهر لم يكن لدي وقت حتي لقراءة الصحف. الأمور أكثر هدوءا الآن .في ما يتعلق بعرضك، أقترح أن أبدأ بمقال واحد، ربما في أواخر نيسان (ابريل)ثم مقال آخر في أيار (مايو).بعدها سيكون العام الدراسي قد انقضى (وبالمناسبة افكر في ترك التدريس)وسأكون قادرا علي ان ارسل لك أكثر من مقال في الشهر ...أتصور ان المقالين أو الثلاثة الاولى يمكن ان تعنى بالأزمة /الربيع اللبناني، ربما في علاقتها بقضية الديموقراطية في العالم العربي '.ما رأيك؟

سلامات '

التوقيع :سمير قصير

تلقيت هذه الرسالة الالكترونية (مكتوبة بالانكليزية)من سمير قصير في 7 نيسان الماضي، وذلك ردا علي طلب متكرر من قبلي بأن يسهم في الكتابة في صفحات الرأي في 'الأهرام ويكلي '، وكنت وقتها رئيسا لتحريرها .لم يتمكن سمير من أن يفي بوعده لي، لا في ابريل ولا في مايو، وقدرت ساعتها ان تداعيات الأزمة في لبنان، وما لا بد ان تكون قد رتبته من مضاعفة لمشاغله الصحافية والسياسية، حالت دونه والوفاء بوعده لي .وفي 2 حزيران (يونيو)قتل سمير قصير ،فشاء القدر ان يكون العرض الأول لأفكاره ومواقفه في 'الأهرام ويكلي '، ليس بقلمه كما تمنيت ولكن رثاء له، وكان رثاء جميلا جمال المرثي، كتبته صديقة لسمير هي رشا الصفتي، ونشر على صفحة كاملة .

لم تكن معرفتي بسمير قصير ،مع الأسف، عميقة أو قديمة .التقيته خلال السنوات القليلة الماضية مرات معدودة، كل منها لأيام قليلة، وذلك في غضون مشاركتنا في مؤتمرات أو لقاءات لصحافيين ومثقفين عرب وغير عرب .ومع ذلك فما أكثر ما الحت صورته على ذاكرتي خلال الشهور الماضية .أتذكره حين أخرج لشرفة منزلي لتدخين سيجارة (انضباطا بقرار زوجتي بمنع التدخين داخل المنزل)، فأتذكر تسللنا من اللقاءات الأوروبية المحرم فيها التدخين تحريما قاطعا، واعترافنا المتبادل (ونحن نتبادل السجائر)بما قطعناه على انفسنا من وعود لزوجتينا بوقف التدخين وقفا نهائيا .

تذكرته حين تمت اقالتي من رئاسة تحرير 'الويكلي 'بعد مقتله بشهر واحد، وكان القتل والاقالة شديدي الشبه من حيث الأسباب، بعيدين بعد السماء عن الأرض من حيث الوطأة، فجاءت الذكرى مؤكدة لتفاهة ما دفعته من ثمن، وفداحة ما دفعه، مجسدة للرقة النسبية في الاستبداد المصري (على الأقل في ما يتعلق بالمثقفين)مقارنة بنظيره المشرقي، وهو الأمر الذي يحلو للكثير من المثقفين المصريين المناهضين لاوتوقراطية النظام المصري نسيانه حين يغضون النظر عن قسوة وبشاعة وهمجية القمع 'الوطني 'و 'القومي 'في المشرق العربي، بدعوى الدفاع عن' المصالح العليا 'للأمة .

تذكرته مؤخرا، مع غيري، حين عمل الرقيب علي استكمال مسعاه 'لضبط 'جريد 'النهار 'بقتل رئيس تحريرها جبران تويني .

لكن ثمة أمرا آخر أشمل وأكثر تجريدا يستدعي صورة سمير قصير الى الذهن على نحو شبه يومي، ويمكن ايجازه في عبارة واحدة :البحث عن خيار مختلف في زمن عربي تحكمه الخيارات الرديئة .لم يكن سمير الشهيد الأول للاستبداد 'القومي '، فشهداؤه كثر، لكنه ربما كان أول شهيد /رمز لمسعى جديد، لا يزال محدودا وواهنا ومحاصرا، للبحث عن مخرج ديموقراطي حقا، مخرج انساني وعقلاني وتحرري من مأزق كئيب بات عنوانا للحالة العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين، وبدا كأنه يفرض علينا مفاضلة قدرية بين أنواع مختلفة من القهر والاضطهاد والمذلة، المفاضلة بين من يمسك

بأعناقنا ويخضع عقولنا ويتحكم في مصائرنا .

في الآونة الأخيرة قرأت في احدى الصحف المصرية لأحدهم يتوجه بالتحية لقبطي مصري كان قد صرح (وفقا لصاحب التحية)بأنه يفضل ان يقتل علي أيدي 'أشقائه 'المسلمين العرب من ان ينقذ الأميركيون حياته .راودني ساعتها التساؤل: وهل يتطوع أيضا بحياة زوجته، أمه، أطفاله؟ كم من المسيحيين العرب يقبل صاحبنا القبطي الوطني الغيور التضحية بحياتهم ليحول دون جورج بوش والحصول على تكئة جديدة لتدخل جديد في شؤون الأمة ومقاديرها؟ مائة، الف، مليون؟

وبصرف النظر عما يعكسه التصريح الانتحاري من ميل عربي اصيل للتضخيم والمبالغة، فالكارثة الحقيقية التي يجسدها كل من صاحب التحية وموضوعها ان الاثنين فاتهما ان القضية في الحقيقة هي كيف نعمل حتى لا يقتل مسيحي عربي أو يضطهد أو يميز ضده بسبب دينه .

خيارات مستحيلة، كلها قبيح وكئيب تحيط بنا من كل جانب وتشد خناقها حول أعناقنا وعقولنا يوما بعد يوم :بوش أم صدام، الاستسلام للأمر الواقع الأميركي-الاسرائيلي أم الانتحار (او الشهادة ان شئت)، حكم لبنان من المخابرات السورية أم من السفارة الأميركية، السكوت على مسلسل الاغتيالات المروع في لبنان أم اعطاء الولايات المتحدة ذريعة لفرض العقوبات على سورية، التسليم بالاحتلال الأميركي للعراق أم السكوت على' جزارة 'الزرقاوي المفتوحة، التواطؤ على التطهير العرقي في دارفور ام (مرة اخرى(اعطاء الولايات المتحدة ذريعة (لم تكن ترغب فيها في الحقيقة)لفرض العقوبات على السودان؟ ثم هناك الخيار الكبير الذي يبدو مطروحا على كثير من الشعوب العربية هذه الأيام :حكم العسكر أم حكم المشايخ، الاستمرار في الخضوع لاستبداد شبه علماني قديم ومتهالك أم فتح الأذرع ترحيبا باستبداد جديد وفتي ودیني الطابع؟

في القصص الشعبي المصري عادة ما يجد البطل المسافر نفسه امام طرق ثلاث، هي وفقا لروايات المرحومة جدتي 'سكة السلامة وسكة الندامة وسكة اللي يروح ما يرجعش '.أما الواقع العربي الراهن فيبدو انه قد أغلق 'سكة السلامة 'في وجوهنا، ليطرح علينا الاختيار بين طريقين لا ثالث لهما، يقودنا أحدهما الى الحسرة والآخر الى التهلكة .

في 9 تشرين الثاني (نوفمبر)الماضي كان واجب المواطنة يقتضي مني التوجه الى مدرسة مجاورة لمنزل الأسرة للادلاء بصوتي في الانتخابات البرلمانية في دائرة الدقي، حيث المنافسة مستعرة بين السيدة آمال عثمان عن الحزب الوطني الحاكم والسيد حازم صلاح أبو اسماعيل عن الإخوان المسلمين، وهي التي انتهت بحصول أبو اسماعيل على أغلبية كبيرة من أصوات الناخبين لم تحل دون سقوطه وفوز مرشحة الحزب الحاكم .لم اتوجه للادلاء بصوتي في هذه الانتخابات .دخنت سيجارة في شرفة منزلي وتذكرت سمير وسألت نفسي اذا ما كان الوقت قد فات ام ان سكة السلامة لم تزل هناك تنتظر من يبحث عنها .

الموضوع :عام

المصدر :الحياة